المزايا الفونولوجية للّغة العربية

د. عبد العليم بوفاتح
جامعة عمار ثليجي-الأغواط(الجزائر)
abdelalimboufatah@yahoo.fr

ملخص :

لقد حظي اللسان العربي في بعض جوانبه بحظ وافر من الدراسة، لكنّ جوانب أخرى منه لا تزال تنتظر من الجهد ما يكشف عن أسراره ومزاياه التي ينفرد بها. ومن هذه الجوانب التي تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة نظامه الفونولوجي الذي يبدو قصور البحث فيه جلياً ، ولا سيما ما يتصل بالمجال التطبيقي منه. وعلى هذا آثرْنا أنْ يكون حديثنا في هذا المقال، الذي يندرج في إطار الفونولوجيا التقابلية، عن الفونولوجيا العربية وأهمّ خصائص اللسان العربي ومزاياه التي تتجلّى في مقارنته بغيره من الأنظمة الفونولوجية في الألسنة الأخرى.. وقد شفعنا بحثنا بنماذج تطبيقية مقتضبة، إشارةً إلى الجهود القيّمة لعلماء العربية في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية : لغة، فونولوجيا، عربية ، صوتي، مستوى، فونيم ، لهجة، مقطع، حرف، دلالة.

Abstract :

The phonological advantages of the Arabic language

The Arabic language has had a great deal of study in some of its disciplines , but there other sides that are still waiting for more effort to be done to uncover its secrets and advantages .

Some of these sides are the phonological system which has not been studied enough. Especially the its application , for this reason we have chosen this topic in this article , which deals with phonological opposition , about Arabic phonology besides the most important features and advantages of the Arabic tongue which are seen clearly when comparing it with other phonological systems of other tongues … We have used some resources and samples about the precious efforts of Arabic scientists in this field .

Keywords : Language, phonology, arabic, phonetic, level, phoneme, dialect, syllable, character, connotation.

توطئة :

ممّا لا شكّ فيه أنّ اللغة العربية بسعتها وخصوبتها تسمح بإقامة العديد من البحوث والدراسات حولها في مختلف الفروع والتخصصات، وهذه حقيقة ثابتة بالدليل منذ أنْ شرع علماء العربية في تدارس اللسان العربي في أول عهدهم.. ومن الثابت بالدليل أيضا أنّ البحوث والدراسات العربية، في مجال البحث اللساني عموماً والبحث الصوتي على الخصوص، لم تزل تؤتي ثمارها كل حينٍ. وقد ركزنا في هذا المقال على ماله علاقة بالجانب الفونولوجي (الوظيفي).

وقبل الكلام عن الخصائص التي تتميز بها الفونولوجيا العربية والمزايا التي ينفرد بها اللسان العربي، يحْسُن بنا أنْ نُقدّم فكرة وجيزة عن المستوى الصوتي للغة على اعتبار أنه أول المستويات اللسانية ومنطلق التحليل فيها، لنبيّن بعد ذلك الإطار الذي تتحدد فيه دراسة الأصوات اللغوية، ونوضح مجالات هذه الدراسة.

المستوى الصوتي: من الصوتيات إلى الفونولوجيا : إنّ المستوى الصوتي هو أول المستويات التي ينبغي مراعاتها في الدرس اللغوي مرورا بالمستوى الصرفي فالنحوي ، ووصولا إلى المستوى الدلالي الذي تشترك كل المستويات الأخرى في تشكيله ، لأنه يشملها مجتمعةً.

والمستوى الصوتي يشمل جانبين من الدراسة يتمثل الجانب الأول في دراسة الأصوات اللغوية " باعتبارها وحدات صوتية مجردة منعزلة عن سياقاتها فيتركز البحث على بيان مواضع نطق هذه الأصوات وصفاتها في لغة معينة ، وهذا البحث الصوتي هو ما يطلق عليه مصطلح (Phonétique) "[1] .

ويتمثل الجانب الثاني من الدراسة الصوتية للّغة في اعتبار الصوت اللغوي " وحدة في نسق صوتي ، فتهتم الدراسة ببيان الأشكال المختلفة التي يتشكل بها الصوت وكذلك بيان وظائفه وقيمه، ويطلق على هذه الدراسة مصطلح Phonologie ." [2]

ونجد لدى **دي سوسور** تحديدا مختلفاً للصوت اللغوي إذ يقول إنّ " فيزيولوجية الأصوات تسمّى عادة (فونتيكPhonétique) وهذا المصطلح يبدو لنا غير ملائم ونحن نستبدله بمصطلح(فونولوجيا Phonologie) لأنّ مصطلح (فونتيك Phonétique) اختص وينبغي أنْ يبقى مختصا بدراسة تطور الأصوات فلا نستطيع إذاً أنْ نجمع تحت اسم واحد نوعين من الدراسة متباينين بوضوح . فالفونتيك (Phonétique)علم تاريخي يحلل الأحداث والتحولات الصوتية عبر الزمن أما الفونولوجيا (Phonologie) فهي بعيدة عن الإطار الزمني لأن آلية التلفظ تبقى دائما متشابهة في كل الحالات.." [3] **فدي سوسور** يطلق مصطلح (Phonétique) على الدراسة التاريخية لأصوات اللغة ومصطلح (Phonologie) على الدراسة الوظيفية الآنية ، مع أنه لم يستعمل هنا مصطلح الوظيفة كما نجد لدى الذين جاؤوا من بعده . **وهو** بتحديده هذا يختلف عن علماء حلقة براغ بحيث يقصر الـ(Phonétique) على الدراسة التاريخية دون الوصفية .كما أنّ الـ(Phonologie) تقتصر على دراسة أصوات الكلام المنطوق - دون اللغة - من الناحية العضوية الفيسيولوجية. [4]

وقد كان " **كروسفسكي** هو أول من دعا إلى التمييز بين دراسة الأصوات اللغوية في ذاتها الفسيولوجي والفيزيائي وبين وظائف هذه الأصوات ." [5] وكان البراغيون قد ميزوا بين الPhonétique بالفرنسية أوPhonetics بالإنجليزية والـ Phonologie بالفرنسية أو الـ Phonimics عند الأمريكيين فاختاروا الأولى لدراسة الأصوات اللغوية من حيث كيفية حدوثها في المخارج ومن حيث كونها ظواهر اهتزازية لها قوانينها مثل كل الأصوات ومن حيث أنها ظواهر تخص السمع، وأطلقوا الثانية على دراسة الأصوات اللغوية لا كأصوات بل كوحدات لغوية لها تلك الوظيفية التمييزية .. ويقول **تروباتزكوي** بهذا الصدد بأنه ينبغي إنشاء علمين اثنين لا علما واحدا. بحيث يكون الأول موضوعه فعل الكلام والثاني موضوعه اللغة ... [6]

وقد قرّر **جاكوبسن** أنه يمكن دراسة المسائل الفونولوجية عن طريق دراسة الملامح المميّزة المكونة للفونيمات من الناحية الأكوستيكية ومن وجهة نظر المستمع أكثر ممّا يمكن من وجهة النظر النطقية أو وجهة نظر المتكلم .. وكان هذا مما أدّى إلى الرّبط الفونولوجي بين المكون النّحوي والمنطوق المدوّن صوتيا في القواعد التوليدية – التحويلية . [7]

هكذا يظهر الفرق واضحا بين الدراستين . فالفونتيك (Phonétique) التي تدرس بصفة عامة أصوات اللغة الإنسانية "هي علم قديم ..أما الفونولوجيا (Phonologie) فهي على العكس من ذلك ، علم تأسس منذ ما يزيد عن نصف قرن .. وإننا نستطيع أن نثبت بأن هناك وصفا فونولوجيا كما أن هناك نظريات فونتيكية . " [8] ذلك أن التحليل الفونولوجي وظيفي فهو " يتجه نحو التعريف بالعناصر الصوتية للغةٍ ما ويصنّفها بحسب وظائفها في هذه اللغة . وهذه الوظائف تكون تمييزيه أو تقابلية ..." [9]

وعلى الرغم من أنّ موضوع هذا المقال هو الفونولوجيا ، أي : **الصوتيات الوظيفية** التي تتناول الصوت من خلال أثره الوظيفي ، فإنّه لا بدّ من التطرّق إلى الأصوات من الجانب الفونيتيكي الذي يتناول الصفات الفيزيولوجية و الفيزيائية ، إذْ ليس بالإمكان معرفة الصفات التمييزية للأصوات دون الكلام عن مخارجها وصفاتها المختلفة التي تمنحها هذا التمييز.

وإذا جئنا إلى الباحثين العرب في علوم اللسان وجدنا كثيرا منهم كما يقول الدكتور مصطفى حركات : " لا يميزون في أعمالهم التطبيقية بين الصوتيات Phonétique والصوتيات الوظيفية Phonologie .نراهم في الأبواب النظرية يميزون بين هذين الميدانين ولكنهم عند التطبيق يبقون على المستوى الصوتي فقط . والدليل على ذلك أنّ الأبحاث في الفونولوجية العربية شبه معدومة ، ولمّا يتصفح الدارس كتابا في الصوتيات العربية يجد وصفا للحروف والحركات مع مخارجها وصفاتها يشبه إلى حدّ كبير وصف سيبويه ولا يتعداه إلاّ في بعض النقاط ، أمّا التحديد الدقيق للصفات التي تميز حرفا عن آخر والمنبثقة من عملية التقابل المبنية على الوظيفة التبليغية فهذا لن نجده ، مع أنه هو العمل اللساني البحت وهو الركيزة لتعيين النظام الفونولوجي العربي." [10]

بعد هذه اللمحة الموجزة عن مستوى الدراسة الصوتية للغة بجانبيها النطقي والوظيفي ، وبيان الفرق بين هذين الجانبين ، سنتناول جملة من النماذج التي تتجلّى من خلالها بعض الخصائص والمزايا الفونولوجية للعربية .. لنخلص في الأخير إلى أهمية العربية وقيمتها العلْمية بما يحتّم على الدارسين استجلاء مكنوناتها واكتشاف أسرارها نظرا لخصوبتها وثرائها ومرونتها وانسجامها مع المناهج العلمية الحديثة على اختلافها وتنوعها .. ولن نهتم هنا برسم الجداول والمخططات التي تضم المخارج والصفات ، بل سنركّز على ما بينها من تميز وتباين وظيفي وذلك من خلال بعض النماذج التطبيقية من العربية وغيرها لنقابل بينهما قصد استخلاص مزايا اللسان العربي وخصوصياته. وهذا هو الهدف من المقال ..

أسبقية العربية وثباتها في المجال الصوتي : لقد عُرِفَت الدراسة الصوتية عند علماء العربية منذ العصور الأولى، وسبقوا فيها الأوربيين. فهذا برجستراسر يقول بأنه لم يسبق الأوربيين في هذا العِلْم إلاّ قوْمان : العرب والهنود. وهذا فيرث يُقِرّ بأنّ الدراسات الصوتية نشأتْ ونمتْ في أحضان لغتين مقدّستين هما: العربية والسنسكريتية.

ومما أعطى الدراسة الصوتية العربية قيمةً أكبر ومنَح العلماءَ في دراستها حظًّا أوفر، ما أولوْه من عناية بالقراءات القرآنية [11] إذْ اهتدوا بفضلها إلى عدة خصائص ومزايا للّسان العربي ما كانوا ليعرفوها لولا إقبالهم على القراءات واهتمامهم بها.

ولقد أثّر اللسان العربي في كثير من اللغات وأثراها . فكثير من اللغات بآسيا وأوربا وإفريقيا نجدها مشتملة على كلمات عربية برمّتها ، أو نجد كثيرا من كلماتها يتضمّن حروفا عربية خالصة.. ومن هذه اللغات نذكر على الخصوص: التركية والإيرانية والهندستانية. فإنّ قاموس كل منها حافل بآلاف من ألفاظ العربية، بحيث لا يمكن العثور على جملة طويلة في تلك الألسن لا تحوي عدة عناصر عربية [12]

ومما يتميز به اللسان العربي هو الثبات وعدم التبدّل في الأصوات ومدلولاتها " فلو أن عربيا جاهليا بُعِثَ الآن وسمعَنا ننطق بلفظ فصيح لفهمَه لأنّ أصوات لغتنا الفصحى لم يطرأ عليها تغيير ... ونحن حريصون على تقييد لغتنا في هذه المواطن بالفصحى لئلاّ يعترض علينا ببعض التبدلات الصوتية في اللهجات العربية المتباينة قديما وحديثا ، وهذه التبدلات شديدة مستهجنة في لهجاتنا الحديثة خاصة " [13]

وإنّ من يدرس أصوت اللغة العربية دراسة إحصائية دقيقة يؤخذ بظاهرة مدهشة حين يرى رأي العين ثبات أصواتها . فمن خصائص العربية احتفاظها بأنسابها اللغوية ، إذْ لم يعترها من التغيير في النطق بحروفها ما اعترى سائر اللهجات في العالم . والسبب في ذلك سعة مدرجها الصوتي ، فإنّ أحرف الهجاء العربي تشتمل على جميع الأصوات الإنسانية ومخارجها ، حتى (**p , v**) وهما الحرفان اللذان لا يوجدان في العربية يمكن تعويضهما فيها اعتمادا على مخرجي : الفاء والباء .. [14] فإذا نطقنا صوتا بين الفاء والباء مع تغليب الفاء قليلا حصلنا على الصوت :**v** وإذا غلّبنا الباء حصلنا على الصوت : **p** مع الإشارة

إلى أن هذين الصوتين هما من الفروع غير المستحسنة في العربية عند سيبويه [15]. ومهما يكن فإنّ الباء في العربية تُغْنِي عن **p**: والفاء تغني عن : **v** وهكذا فإنّ أيّ حرف غير عربي يمكن استبداله بحرف عربي إمّا مباشرة بما يطابقه ، وإمّا باستعمال حرف يقاربه ويدل عليه ، وإمّا بالمزج بين حرفين (أي : بالتوسّط بينهما) وهذا دون الابتعاد عن الحرف المقصود بنطق غيره ، وهو مما يدل أيضا على ثبات الحرف العربي على الرغم من التنوع الصوتي له . لكنه لا يحدث العكس من لغة أخرى إلى العربية . " وانفراد العربية بحفظ أنسابها الصوتية يزداد وضوحا بمقارنته بما في اللغات الأجنبية الحية من اختلاط حروفها وانحدارها الطبيعي الذاتي نحو التبدل الصوتي ...فالكاف اللاتينية (**c**) تُقلب في الفرنسية شيناً (**ch**) إذا وقعت بعد فتحة قديمة .. وتجد في الفرنسية ضربا عجيبا من التغيّر الصوتي لا يقع مثله في العربية بحال من الأحوال ، فالفعل : aller مثلا يتحول في الحاضر إلى je vais وفي المستقبل إلى:j'irai وعند ردّه إلى الجمع يتحول إلى : il iront . فقد ضاعت الأنساب الصوتية عند التصريف..." [16] وإلى جانب هذا التغيّر في اللغات الأخرى نجد أصواتا تختفي كصوت : **h** (الهاء) في الفرنسية الذي يختفي نطقاً على الرغم من إثباته كتابةً كما في Habitude ، Honneur ،Heritage .. وغيرها .. وإذا كانت ظواهر التبدّل والتغيّر والاختفاء ضرورية بل مفروضة على هذه اللغات لضمان بقائها وتطورها ، فإنها لا توجد في العربية إلاّ قلبلاً ، وهي بذلك (أي : العربية) تحافظ على بقائها وتطورها من خلال ثباتها .. وهذا من خصوصيات اللسان العربي ..

الفونيم واللهجات العربية : الفونيم هو أصغر وحدة صوتية تجريدية لها خاصية التغاير والتمايز في لغةٍ ما . **وهو ذو وظيفة فونولوجية** تنشأ من ميزة تلفّظية تؤدّي إلى مبدأ تعتمده الفونولوجيا هو الملمح التمييزي . أي أنّ الأصوات تتمايز وتختلف فيما بينها بسبب اختلاف مخارجها وصفاتها بين شفوية وأسنانية وحلقية ، وبين مجهورة ومهموسة ومرققة ومفخمة وغيرذلك.

وقد كان تروباتسكوي أول من أكّد على ضرورة مراعاة وظيفيّة الفونيم في التحليل الفونولوجي بقوله : " يجب على الباحث الفونولوجي أنْ لا يعتبر في اللفظ إلاّ ما يؤدي وظيفة معينة في اللسان .. وإنّ الفونيم هو وحدة وظيفية قبل كل شيء " [17] ولكن لا غرابة - كما يقول الدكتور الحاج صالح - أنْ نجد عند الفلاسفة العرب تحديدات قد تفاجئ اللغوي الأوربي لأنها سبقت تروباتسكوي بعشرة قرون ، وذلك كتحديد ابن سينا للحرف فهو عنده : " هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر في المسموع.. " [18] بل إنّ ابن جني قبل أكثر من ذلك كان قد تنبّه – في سرّ صناعته - إلى الصوت المميّز (phonème le) وتكلّم عن أثره الوظيفي ودوره التمييزي ، لكنه عبّر عن ذلك باصطلاح زمانه .

فوظيفة الفونيم إذاً هي التمييز بين الكلمات ومنحها قِيَمًا لغوية متباينة صرفيًا أو نحويًا أو دلاليا . بحيث يظهر التمييز الصرفي للكلمة ويتبعه التمييز النحوي فينتج عن ذلك تمييز دلالي بانتقال الكلمة من دلالة إلى أخرى . وهذا ما يبيّن أنّ للفونيم وظيفةً دلاليةً .

ولكن ماذا نقول في قول العرب (**سراط** وهي لغة تميم ، **وصراط** وهي لغة قريش ، **وزراط** وهي لبني كلب) ومثلها (**سقر** ، **وصقر** ، **وزقر**) على الترتيب السابق نفسه ، وما دخل في هذا الإطار ؟ هل يمكن اعتبارها فونيمات مع أنها لم تغيّر المعنى كما في قولنا : **حالَ** ، **جالَ** ، **قالَ** ، **نالَ ...** ؟ أم أنها مجرد أوجه وتأديات متنوعة لفونيم واحد ؟

الحقيقة أنّ هذه الأصوات مختلفة في جوهرها. فالسين غير الصاد وغير الزاي . وهكذا مع الباقي. فلو استعملناها إلى جوار أصوات أخرى متماثلة لظهر لنا جليا تغيّر المعنى كما في قولنا مثلا: **سال** ، **صال** ، **زال**. ولذلك فالأصل اختلافها، أي: اعتبارها فونيمات مستقلة ، وهو الغالب في الاستعمال. أما كونها تأديات متعددة لفونيم واحد فهو ليس أصلاً مع أنه كثير في اللغة وله شواهده المروية . وهو مما تتميّز به العربية .

ولفظ الصراط في الفاتحة – كما ورد في القراءات – يُنطق بالصاد عند أكثر القرّاء وبالسين والصاد عند ابن كثير ، وبهما وبالمضارعة بين الزاي والصاد (أي بإشمام الصاد صوت الزاي) عند أبي عمرو وحمزة . وبالزاي الخالصة عند أبي عمرو أيضا كما روى الأصمعي.. والقراءة بالسين عند أبي علي الفارسي هي الأصل. إذ إنّ السين هو الصوت الأساسي في هذه الكلمة ، والصاد بدل منه ... وقراءة الصاد أيضا لها وجه ، إذْ هي أخفّ على اللسان لاتّفاق الصاد مع الطاء في الاستعلاء والإطباق . وهو (أي : الفارسي) يرجح القراءة بالصاد على لقراءة بالسين لهذا الانسجام الصوتي ، فالسين مستفلة منفتحة والطاء مستعلية مطْبقة . والانتقال بينهما صعب .فلما قُلبت السين صادًا زالت تلك الصعوبة وأمكن النطق بسهولة .

وقراءة الزاي أيضا لها وجه ، لاتفاق الزاي مع الطاء في الجهر ، ولكنها عنده ضعيفة وروايتها عن أبي عمرو غير دقيقة . فقد قال : " إنّ الأصمعي غير نحوي وأحسب أنه سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة للزاي فتوهمها زايا ." [19] وهذه إشارة منه إلى إمكانية وقوع التصحيف في اعتبار الصاد زاياً .. وقراءة المضارعة عنده تستند إلى مبدأ الخفّة والبُعْد عن الالتباس بجعلها زاياً خالصة وصادًا خالصة . [20]

ولو تتبعنا هذه المسألة المتشعبة لطال بنا الكلام ، ولكننا نصل إلى خلاصة آراء العلماء بالقول إنّ القراءة الصحيحة هي قراءة السين باعتبار أنّ الترقيق هو الأصل كما سنبيّن . ولكنّ قراءة الصاد أقوى لأنّ الانتقال من الصاد إلى الطاء أسهل وأنسب لاشتراك الحرفين في الصفات ، وللتقارب الحاصل بينهما ؛ أمّا الانتقال من السين إلى الطاء فهو صعب ومستثقل في النطق لافتراق الحرفين وتباعدهما ..

كما أنّ هذه الاختلافات لا بدّ أن تكون في أكثر من لغة ، ولا يمكن حدوثها في لغة واحدة وإلاّ كان الاختلاف في المعنى حتميا بتغيير الفونيم ، فهي على هذا **تنوعات نطقية ، أو أوجه وأداءات متعددة لفونيم واحد** لأنها ليست وظيفية (أي أنّ تغييرها لا يؤدي إلى تغيير في معنى الكلمة) كما في **(سقر وصقر و زقر)** على رواية الأصمعي التي نقلها ابن جني في المحتسب عن اختلاف رجلين فيها إذْ نطقها أحدهما بالسين والآخر بالصاد ، فاحتكما إلى ثالث فعدل عن السين والصاد إلى الزاي . وهذا يدلّ على أنّ هذه الاختلافات ناتجة عن تعدد اللهجات (اللغات في الاصطلاح العربي القديم) وهو ما يقابل في الدراسات الصوتية الحديثة : **فونات** variantes باصطلاح الأوربيين أو **ألوفونات** allophones باصطلاح الأمريكيين. [21]

وإذا ثبت أنّ التميميين يميلون إلى الأصوات الشديدة والمفخمة ، فيستعملون الضاد بدلا من الظاء والذال ، والطاء بدلا من التاء ، والصاد بدلا من السين ، والقاف بدلا من الكاف إلى غير ذلك ...فإنّ القول في لفظ السراط (بالسين) بأنه لتميم والصراط (بالصاد) لقريش فيه نظر ؛ لأنّ المعروف عن التميميين – كما أشرنا سلفاً – أنهم يفخّمون على العكس من أهل الحجاز الذين يرققون .

وبناءً على ما سبق ، فإنّ هذا التنوع والاختلاف قد يكون بسبب تعريب هذه الكلمة اللاتينية الأصل المندمجة في العربية ، فاختلفوا في نطقها وهم ينقلونها إلى العربية .. وقد يكون ذلك من تصحيف السمع بسبب تقارب الحرفين من حيث المخرج. [22] وعلى هذا يمكن قياس الأمثلة المشابهة لما ذكرْنا.

وهذه الحروف نفسها هي - من جهة أخرى - فونيمات يستقلّ كل منها عن الآخر (لأنها وظيفية : أي أنّ تغييرها يؤدي إلى تغيير في المعنى) كما في **(سال ، صال ، زال)**

ولنا أن نسأل الآن : كيف يكون الصوت نفسه في اللغة نفسها تارة فونيما مستقلا وتارة أخرى يكون مع غيره مجرد تأدية لفونيم معين .؟ والذي يبدو لنا هو أنّ الالتباس كثيرا ما يحدث بين الصاد والسين فيُنْطَق أحدهما بدلا من الآخر ، وكلاهما قد يلتبس بالزّاي . وهذا الالتباس يشمل بقية الأصوات المتشابهة والمتقاربة.

فقد ورد عن الأصمعي فيما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه أنّ العرب أبدلوا الصاد سينا وزايا على تجانس نحو قولهم : ماكدْتُ **أتملص** منه و**أتملس** و**أتملز** : بمعنى أتخلص .. لكنهم باعدوا في إبدالها تاء في مثل : اللص واللت. وطاء في مثل : المملص والمملط ، وضادا في قولهم : رجع إلى صئصئه وضئضئه. أي : أصله . وياء في وصفهم الحجر الصلب بالأصرّ والأيرّ.[23] أمّا السين فقد أورد الأصمعي أمثلة عن إبدالهم إياها تاءً . إذْ قالوا : الكرم من سوسه ومن توسه ، أي : من خليقته .[24] والسين والتاء يتفقان من حيث كونهما من الحروف الأسنانية اللثوية .. وقول الأصمعي هذا يؤيّد ما ذكرنا آنفاً.

صفات الحروف ودورها التمييزي : صفات الحروف في العربية لها دور بارز في التمييز بين الكلمات فنطْق الحرف مجهورا مثلا يختلف عنه مهموسا. ولنضرب مثالا على ذلك بقولنا **(خالٍ ، غالٍ)** فالخاء مهموسة والغين مجهورة ، وهذا التمايز بين الجهر والهمس هو الذي يؤدي إلى تمييز اللفظة الأولى من الثانية واختلافهما في المعنى .

وكذلك الحروف المرقّقة في العربية لها ما يقابلها من الحروف المفخّمة.[25] فالتاء تتحول بالتفخيم إلى طاء والدال تتحول إلى ضاد ، والذال إلى ظاء والسين إلى صاد والانتقال من الترقيق إلى ما يقابله (أي التفخيم) في العربية أحيانا يكون وظيفيا ، فقولنا : **تبع** غير قولنا : **طبع** ؛ وقولنا : **سال** غير قولنا **صال** ..

وأحيانا أخرى لا يكون وظيفيا ، كما في قولهم : **الأقطار والأقتار** بمعنى النواحي . كما يقال : وقع على أحد قطريه أو قتريه ، أي : ناحيتيه . ويقال : **قطّره وقتّره** إذا ألقاه على أحد قطريه . ويقال : رجل **طبِنٌ وتبِنٌ** ، أي : فطِنٌ حاذقٌ . ويقال : ما **أستطيع** وما **أستتيع**.[26]

ولكن يجب أنْ نعْلم أنّ الناطقين بهذه اللهجات الذين استعمل بعضهم السين واستعمل بعضهم الآخر الصاد بدلا منها . وكذلك الذين استعملوا الطاء واستعمل غيرهم التاء بدلا منها ، وما إلى ذلك من مثل هذه الاختلافات.. يجب أن نعْلم أنّ هؤلاء لا يعتبرون هذه الحروف شيئا واحدا فالسين عند التميميين ليست هي الصاد عند القرشيين ولا هي الزاي عند الكلبيّين ، وهكذا مع الباقي .. مع أنهم (أي علماء العربية) قد أشاروا إلى تعدد الحروف (الأصوات) الصادرة من المخرج الواحد ، وهذا يؤدي حتْماً إلى تعدد الصفات التي تميّز هذه الحروف بعضها عن البعض ، ومن هذه الصفات ما هو أساسي كالجهر والهمس مثلا ومنها ما هو ثانوي كالأنفية (أي وجود الغنة) والاتساع والتضييق والصفير وغيرها .فإذا أُريدَ التمييز بين الأصوات فأول ما يُنْظر إليه هو المخرج ، فإن اتفقا مخرجاً فالصفات . وأول ما يُنْظر إليه من الصفات هو الجهر والهمس فإنْ توافقا فيه عُمِدَ إلى الصفات الثانوية الأخرى – ومنها التي ذكرناها – من أجل تمييز أحدهما من الآخر فونولوجياً.

إلاّ أنّ اللغويين والنحاة لم يراعوا ذلك الاختلا ف اللهجي الملحوظ وإنما قاسوا أعمالهم وبحوثهم على الشائع المتداول في اللسان العربي ، واعتبروا اللهجات – على تعددها – لغة واحدة .. ولم تحظ هذه الظاهرة المتميّزة في الدرس اللغوي والنحوي بالعناية الكافية على أنها لهجات متعددة لأقوام مختلفين من العرب منهم البدوي ومنهم الحضريّ - وذلك أمر مبرّر في نظرنا بنِيّة ضبط آليات اللسان العربي والحفاظ على نظامه - كما أنّ هذه اللهجات وقعت في زمن واحد . وهذا يدلّ على أنّ طبيعة الناطقين والبيئة التي عاشوا فيها وغير ذلك من المؤثرات كلّ ذلك وجّهَ نطقهم للّغة وفق لهجات معيّنة تبعًا لهذا التأثير. فحدث هذا الاختلاف (كما هوالشأن بين التميميين والحجازيين مثلا) . وإذا كان القدماء قد أقاموا دراساتهم وفق ما

تهيّأ لهم من الظروف ، وما تطلّبتْه تلك المرحلة – مع العلْم أنهم نقلوا لنا أخبارهم وقدموا لنا ملاحظاتهم بأمانة - فإنّ الذي ينتظر الباحثين اليوم هو استغلال تلك الأخبار والملاحظات واستثمارها في توسيع الدراسات والبحوث حول اللسان العربي قصد إثرائه واكتشاف أسراره ، كما نبهنا في بداية هذا المقال ..

بين الإطباق والتفخيم : الانفتاح (الترقيق) هو الأصل في النطق بالحروف. والانتقال منه إلى الإطباق (التفخيم) فرع عنه. وعلى هذا فالدال والسين والذال أصول بالنسبة إلى الحروف المطبقة : الطاء والصاد والظاء . أما الضاد فليس له أصل مرقق يقابله. وعلى هذا قال سيبويه بأنه " لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ولخرجت الضاد من العربية لأنه ليس شيء من موضعها غيرها "[27] أي : أنّه ليس في العربية حرف يوافق حرف الضاد في كل الصفات ماعدا الإطباق ، بحيث يقابله ويمكن التنقل منه إليه عند النطق به مطبقا، فهو بذلك يختلف عن الحروف المذكورة آنفاً . ولعلّ هذا من أسرار حرف الضاد الذي حاز شرف نسبة العربية إليه دون غيره من الحروف .. مع أننا نرى نطقه مختلفا بين الأقطار العربية حاليا ، فمنهم من ينطقه دالا مفخمة ومنهم من ينطقه ظاءً بل لقد أشكل على القدماء نطقه فعمد بعضهم إلى نظم المتون لتمييزه من الظاء وذلك بإحصاء الكلمات التي تنطق بالضاد والتي تنطق بالظاء تيسيراً لهذا الأمر..

ولقد أصاب علماء العربية قديماً إذ اعتبروا الإطباق فونولوجيًا (وظيفياً) واعتبروا التفخيم تأدية صوتية نطقية غير فونولوجية . ومن ذلك نطق بعض الحروف كاللام والراء مثلا ، تارةً بالترقيق وأخرى بالتفخيم تبعاً لما يسبقهما أو يتبعهما من الحروف والحركات ، وكل ذلك لا يغيّر المعنى . أي : لا تكون له وظيفة فونولوجية... غير أنّ بعض الدارسين يعتبرون الإطباق والتفخيم شيئا واحداً .

المقطع العربي وخصائصه : الانتقال من مستوى الصوت المفرد إلى مستوىالكلمة يتمّ عبْر ما يسمّى بالمقطع ، أي أنّ الكلمة في العربية مكونة من عدة مقاطع متحدة بعضها مع بعض . وقد تكون الكلمة برمّتها مقطعاً واحداً.

والمقطع العربي هو عبارة عن اتحاد الصوامت والصوائت في نسق منتظم منسجم عجيب يؤدي إلى تشكيل كلمة معيّنة . إذْ إنّ كلّ تغيير في هذا النسق يترتب عليه تغيير في بنية الكلمة ودلالتها .

والمقطع نوعان : مفتوح ومقفل ، فالمفتوح هو الذي ينتهي بصائت . والمغلق هو الذي ينتهي بصامت . وتتفرع عن هذين النوعين أقسام أخرى كالمقطع القصير والمديد الطويل والمديد ، وذلك بحسب مكونات كل منها من الصوامت والصوائت .

والذي يعنينا ههنا أكثر هو المقطع العربي وماله من خصائص تميّزه من غيره . فهو يتكون من صوائت وصوامت ، وهو لا بدّ أن يبدأ بصامت كما في : " **نجح** " أو بنصف صائت كما في: " وقف " وفي: " **يوم** " . ولا يمكن أن يبدأ بصائت. كما يجب أن يكون الصامت الذي يبدأ به المقطع متبوعاً بصائت لأنه لا يُبْدأ بصامتيْن متتاليين . وينتهي المقطع العربي بصائت قصير، كما في الطاء وحركتها القصيرة من (**طَ**/لب)**(T)** أو بصائت طويل، كما في الطاء وحركتها الطويلة من (**طَا**/لب**(Taa)** أو بصامت واحد، كما **في : لمْ** .

ولا يمكن في الكلمة العربية أن يتتابع من الصوامت اثنان إلاّ بوجود وقْف، إذْ لا بدّ من الفصل بينها بالصوائت . كما أنّ تتابع الصوائت الطويلة غير مقبول في العربية ، وإنْ التقى صائتان من هذا النوع فلا بدّ من تجنّب النطق بهما ، وذلك بتقصير هذين الصائتيْن أو تحويل أولهما إلى نصف صائت ، كما في إسناد الأفعال المعتلّة إلى واو الجماعة أو ألف الاثنين .

هذا الذي أثبتناه من الخصائص للمقطع العربي لا نجده في غير العربية ، ففي الفرنسية مثلاً يمكن أن يتوالى صامتان ، كما في : " **Dr**apeau, **Cl**air ". أو أكثر من صامتيْن كما في : " **Inscr**ire ".. ومثل ذلك كثير. وفي الانجليزية يمكن أن يتوالى أكثر من صامتيْن كما في : " **Spr**ing , **Str**ong ".. وغير ذلك.

لقد لاحظنا أنّ الصوامت لا تنفك عن الصوائت في اللسان العربي إذْ لا يتمّ النطق بكلمة فيها ثلاثة صوامت دون صائت يفصل بينها ، وهذا دليل على أنّ للصوائت دوراً أساسيا في تكوين المقاطع فالكلمات العربية ومِنْ ثمّ توجيه دلالة الكلمة . فنحن نرى الفرق – مثلاً - بين الفعل " **نجح** " واسم الفاعل " **ناجح** " مردّه إلى وجود صائت هو الفتحة الطويلة (ألف المدّ) . وكذلك الشأن في مختلف الصيغ الأخرى على تنوعها ، كما في المشتقات مثلاً. فبحسب وجود الصوائت وصلتها بالصوامت في مواضع معينة من الكلمة يتحدد معنى هذه الكلمة . فالكلمات : **طلبَ** ، **طُلِبَ** ، **طالبَ** ، **طِلابٌ** ، **طالِبٌ** .. وغيرها كلها تنطلق من ثلاثة صوامت هي : " **ط** ، **ل** ، **ب** " وبدخول الصوائت عليها تنتج عنها عدة صيغ لكلّ منها معناها .. وهذا ما يعنينا أكثر هنا في كلامنا عن المقطع العربي ..

نخلص مما سبق إلى أنّ المقاطع تتحدد أشكالها وأنماطها في لسانٍ ما بالنظر إلى طبيعة هذا اللسان ، وهو ما بيّنّاه هنا عندما قارنّا المقاطع العربية بغيرها وبيّنّا خصوصياتها ومزاياها .. ثمّ إنّ المقاطع العربية مبنية على اتحاد الصوامت مع الصوائت ، ولا يمكن أن نتوصل إلى إيجاد دلالة لكلمةٍ ما باستعمال الصوامت وحدها . وعليه فالصوائت توجّه معنى الكلمة بحسب موقعها من المقطع .

النبر و التنغيم : النبر هو ضغط صوتي يقع من المتكلم على أحد مقاطع الكلمة من أجل تمييزه عن غيره من المقاطع . وتختلف درجات هذا الضغط فقد يكون شديداً، وقد يكون ضئيلاً ، وقد يكون بين ذلك . والنبر ظاهرة فونولوجية ذات أثر متباين بين اللغات في تمييز الوحدات بعضها من بعض. فهو في اللغة الصينية مثلاً أهمّ وأظهر منه في الانجليزية والإيطالية والروسية ، وهو في هذه اللغات الثلاث أهمّ وأظهر منه في الفرنسية.

واختلاف النبر بين لسان وآخر راجع إلى وظيفته التمييزية ، أي : إلى دوره في تحديد معاني الكلمات . ففي اللسان الصيني تحظى ظاهرة النبر بأهمية كبرى إذْ يكون للكلمة الواحدة أكثر من معنى تبعاً لكيفية النبر فيها.. وقد يكون النبر ثابتا في بعض اللغات كالتشيكية التي يأتي في بداية كلماتها. والفرنسية التي يأتي في نهاية كلماتها ، وعندئذ تكون وظيفته تحديدية [28]. أي تبيين حدود الكلمة في بدايتها أو نهايتها.

والنبر يكون بعدة طرق كالزيادة في شدة الصوت أو الارتفاع في نغمته أو امتداده ، ودراسته " تقتضي تحديد نوعيْن من القِطَع يتعديان المصوت ، أي : تحديد القطَع التي نقارنها وهي الوحدات القابلة للنبر وتحديد القطَع التي يجري داخلها التضاد وهي الوحدات النبرية . وبما أنه في معظم اللغات الوحدات القابلة للنبر هي المقاطع ، والوحدات النبرية هي الكلمات ، فإنّ القضية تطْرح عموما بالشكل الآتي : تحديد المقاطع وتحديد الكلمات و موقع النبر في مقطع من مقاطع الكلمة .." [29]

وإذا كان النبر في الألسنة الأخرى ذا وظيفة تحديدية أو تمييزية، بحيث يؤدي إلى تغير في معاني الكلمات فإنه في اللسان العربي لا يحظى بهذه الأهمية من حيث الوظيفة، كتلك التي نجدها في الصوائت القصيرة أو الطويلة. فهو غير وظيفي في العربية على الرغم من ظاهر وجوده في بعض المناطق. هذا عن النبر الذي يختص بالمقطع.

أمّا التنغيم فهو مختص بالجملة أو التركيب ، وهو ارتفاع أو انخفاض في الصوت يشكّل منحنى من التصاعد أوالتنازل النغمي يؤدي إلى تغيير في معنى الجملة ، أو لنقُلْ إنّه عبارة عن أشكال موسيقية يتمّ اختيارها في جملةٍ ما وفق ظروف وأوضاع تخصّ المتكلم أوالسامع للتعبير عن حالات معينة .. والتنغيم ظاهرة تتجاوز النظام المقطعي وتشمل كلّ الألسنة . وهو(أي: التنغيم) يحظى في الاستعمال العربي بأهمية بارزة ، فهو ذو وظيفة نحوية ، إذْ قد نحكم به على جملةٍ ما بأنها استفهامية من غير وجود أداة استفهام فيها أو نحكم على أخرى بأنها إنكارية أو تعجبية أو إخبارية ، كما أنه ذو وظيفة دلالية بحسب ما يُفْهم من الدلالات التي توحي بها أو تترجمها النغمات على المنحنى صعوداً ونزولاً ، دون وجود ما يدلّ على ذلك فيها من الألفاظ أو الأدوات سوى التنغيم ... مثال ما ذكرْناه قول القائل : (**نجحت في المسابقة**) فقد يكون سائلاً لغيره وقد يكون سؤاله حقيقيا أو تعجّبياً ، وقد يكون متعجباً دون سؤال. وقد يكون مخبراً . وقد يكون ساخراً متهكماً . وقد يكون مستغرباً ... إلى غير ذلك من الوظائف النحوية أو الدلالات المختلفة التي تستنتَج من خلال التنغيم . إلى جانب ما يدْرَك من حالات نفسية تنتاب المتكلم ويفصح عنها عن طريق التنغيم، فيُعْرَف إنْ كان مستبشراً أو مستاءً أو حزيناً أو غير ذلك...

وحدة الحرف والصوت وتطابقهما: ومن مزايا العربية أنّ كل حرف يدل على صوت معين خاص به دون غيره والعكس صحيح .. أمّا في غير العربية (كالفرنسية والانجليزية مثلا) فنجد للحرف الواحد أصواتا عديدة ، كما في حرف : **T** الذي ينطق تارة **t** كما في : Titre وتارة **s** كما في : fraction . بل إننا نجد هذا التعدد النطقي للحرف الواحد حتى ضمن الكلمة الواحدة . مثل : Tentation .. هذا في الفرنسية.. وفي الانجليزية نجد مثلا الحرف: **t** إذا جاء متبوعا باللاحقة : **ion** فإنّ كلّ ذلك ينطق صوتا واحدا ومختلفا تماما عن الحروف المكتوبة، وهذا الصوت هو: **ش** : **sh** ، كما في قولنا : Repetition و Articulation كما نجد الحرفين : **gh** ينطقان صوتا واحدا في بعض الكلمات وهو: ف: **F** . أمّا في اللغة الإسبانية فنجد بعض الحروف تنطق بصوتين كحرف: **ش : ch** الذي ينطق تابعا لحرف: **ت: t** ولا ينفصل عنه مهما كان موقعه . فهما في الحقيقة حرف واحد لا حرفان ، " ولو كانا حرفين " لعثرنا على كلمات إسبانية فيها الشين وحده. ولكن الوضع ليس كذلك. ممّا يقودنا إلى القول بأنّ [**ت مع ش** : **tch**] هي تأدية لحرف واحد هو **الشين** ."[30] وهناك عدة تبدّلات صوتية في اللغات الأخرى – غير العربية - حيث يبدو عدم المطابقة واضحا جليّاً. وهنا تقف العربية شامخة بحروفها الثابتة المطابِقة لأصواتها نطْقًا وعدَداً.. والعجيب أنّ ثبات العربية يستجيب لمقتضيات التطور على كل مستوى من مستويات الدرس اللغوي ومنها المستوى الصوتي.

مخارج الحروف وصلتها بالمعاني: تتميز العربية بسعة دلالة حروفها ضمن مختلف استعمالاتها ، فهي تشتمل على كثير من الأسرار التي توحي بأنّ مجال دراستها لا يزال خصبا لاستيعاب البحث والدراسة في جوانب شتّى. وللحرف " قيمة دلالية ووظيفة في تكوين المعنى وتحديده هي في العربية أظهر وأوضح منها في اللغات الأخرى. لأنّ الحرف في العربية ذو قيمة دلالية بارزة ، وإنّ استخراج بعض المعاني الكلية التي تفيدها الحروف بحاجة إلى إحصاء شامل واستقصاء طويل ينتظر من يقوم به حتى الآن لإثبات هذه النظرية أو تعديلها أو رفضها. "[31]

ولعلماء العربية جهود قيّمة ، منها ما هو ظاهر. ومنها ما هو مغمور **كالذي عثرنا عليه عند ابن القيم** بتحليلاته الصوتية القيّمة التي تحتاج إلى دراسة وعناية واهتمام ، وهو ما دفعنا إلى اختيار نماذج منها هنا لبيان أهميتها و قيمتها العلمية .

ولنأخذ منها في هذا الباب مثلاً ما يتناوله هذا العلاّمة المتميّز في دراسته لحروف مادة (حبب) إذْ يزاوج بين الدراسة المعجمية والدراسة الصوتية بفرعيها ، ويختم بالدراسة الدلالية . وهذا هو دأبه عندما يتعلق الأمر بالبحث في الحروف

واكتشاف معانيها وأسرارها .. وقد أشار إلى قلة الاهتمام بالدراسة الصوتية إذْ نجده يشكو " نبوّ طباع أكثر الناس عنها " [32] .ولعل هذا مما يدل على قلة الإقبال على البحث في أصوات اللغة في عصره وأنه كان من هذه القلّة. فقد صرّح بأنه فحص أسرار الأصوات اللغوية قصد التفكر والاعتبار في حكمة من خلق الإنسان وعلّمه البيان . وهذا دليل على اهتمامه بالدراسة الصوتية من مختلف جوانبها وصفاً لها واستجلاءً لمعانيها وتبياناً لأسرارها.

فعندما ينتقل إلى الجانب الصوتي يتكلم ابن القيم عن مخرج هذين الصوتين (ح ، ب) قائلا : " ... وتأمّل كيف أتوا في هذا المسمّى بحرفين: أحدهما الحاء التي هي من أقصى الحلق مبدأ الصوت ، ومخرجها قريب من مخرج الهمزة من أصل المصدر الذي هو معدن الحب وقراره ثمّ قرنوها بالباء التي هي من الشفتين ، وهي آخر مخارج الصوت ونهايته . فجمع الحرفان بداية الصوت ونهايته كما اشتمل الحبّ على بداية الحركة ونهايتها . فإن بداية حركة المحبّ من جهة محبوبه ونهايتها إلى الوصول إليه . فاختاروا له حرفين هما بداية الصّوت ونهايته ..." [33]

فابن القيم يبين مخرج صوت الحاء وصوت الباء ، وهذا ما يتصل بالجانب العضوي الفيزيولوجي كما أسلفنا ، ثم ينتقل إلى علاقة المخرج بوظيفة الصوت ومعناه ، مبيّنا قيمته التعبيرية والبيانية داخل اللفظ . وهذا ما نجد له مثيلا أيضا عند العبقريّ ابن جني في كلامه عن مناسبة الحروف للمعاني . وهو من المسائل الجديرة بالبحث والدراسة لما ينطوي عليه من الفوائد والفرائد . وقد أصاب ابن القيم إذْ صرّح بأهميته وأنه مما ألهمه الله إياه ، قائلا : ".. فتأمّل هذه المعاني التي لا تجدها في كتاب . وإنّما هي روضة أنف منح العزيز الوهّاب فهمها وله الحمد والمنة .. وقد ذكرنا ما لو وجدناه لغيرنا لأعطيناه حقه من الاستحسان والمدح ولله الفضل والمنّة " [34]. ونحن نستشفّ من خلال مناقشاته الشائقة للمسائل المتنوعة مبلغ قدرته ومهارته في استخراج اللّطائف والنّكت والأسرار البديعة التي لا تعلق إلاّ بذهنٍ يناسبها لطافةً ورقّةً.

يعتمد ابن القيم ، في تعليله، على حسّه ودقة فهمه، إذْ يبيّن سبب اختيار العرب لصوت الحاء بدْءاً وصوت الباء ختْماً للتعبير عن هذا النوع من الرابطة القوية ألا وهي رابطة الحبّ . وقد ربط بين مخرج الحرف ودلالته . إذْ لو تمّ اختيار صوت آخر بدل الحاء أو الباء لما حملت الكلمة هذه الدلالة التي تكلّم عنها . فالحاء لها وظيفتها ، وكذلك الباء لها وظيفتها ، وذلك بحسب ما يجول في نفس المتكلم . وتجاور هذين الصوتين بهذا الترتيب دلّ على هذا المعنى المستقرّ في الذهن دون غيره.

وما نلاحظه على هذا النوع من التحليل – من جهة أخرى – هو تجاوز الدراسة الصوتية الفيزيولوجية والفونولوجية الصّرفة إلى البحث فيما وراء ذلك من الأسرار واللطائف التي لا نعثر لها إلاّ عند القليل من العلماء ذوي الحسّ العميق والذوق الرفيع والطبع الرقيق ، أولئك الذين كانوا يدركون وظائف اللغة وأسرار أساليب التخاطب.

ثم إننا نلاحظ أيضا أنّ اللسان العربي متفرّد بظاهرة التقابل بين الأصوات والمعاني وما بينهما من انسجام من أجل تحديد دلالة اللفظ بدقة . وهذا أمر جدير بالوقوف عنده وإمعان النظر فيه. وهو من أسرار هذا اللسان العربي المبين.

أنموذج تطبيقي: مخرج (ألم) ودلالتها : في باب آخر يتكلم ابن القيم عن مخارج الحروف في فواتح سور القرآن الكريم ويكشف عن أسرارها واللّطائف الكامنة فيها. فيذكر مثلا أنّ قوله تعالى في فاتحة سورة البقرة **[ألم]** يشتمل على حروف ثلاثة هي الألف واللاّم والميم ، ووراءها سرّ يوضحه قائلا : " فالألف إذا بدئ بها أوّلاً كانت همزة ، وهي أوّل المخارج من أقصى الصّدر. واللاّم من وسط مخارج الحروف وهي أشدّ الحروف اعتمادا على اللّسان . والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم . وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف : (أعني : الحلق واللسان والشفتين). وترتيب التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية . فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي يتفرّع منها ستة عشر مخرجا فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار

كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمّنها سرّا عجيبا ، وهو أن للألف البداية واللاّم التّوسط والميم النهاية. فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما. وكل سورة استُفتِحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسّطه . فمشتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر. فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل والسجدة والروم... " [35]

يربط ابن القيم هنا بين مخرج الصوت [36] ودلالته. وقد تناول هذه الأصوات في القرآن الكريم ونظر إليها من جانب ديني يتّصل بتفسيرها ومقاصد الشرع فيها وسنة الله في الكون من خلالها. ومهما كانت نظرته فإنه يلتفت هنا إلى الصلة بين مخرج الحرف ودلالته. فالهمزة مخرجها أوّل من أقصى الصدر فهي إذًا تدل على بدء الخلق. واللاّم مخرجها متوسط من اللسان فهي تدل على الوسط بين بدء الخلق و نهايته (أي: ما بعث الله من الشرائع والأوامر لعباده بعد أن خلقهم ، وقبل أن يرث الأرض ومن عليها) والميم مخرجها آخِر من الشفتين فهي تدل على نهاية الخلق في المرحلة الأخيرة. فجاء ترتيب المخارج وفق ترتيب سنن الله في الكون. وهذا الربط بين الجانب الأكوستيكي والجانب الوظيفي للأصوات ممّا دعا إليه علماء الفونولوجيا الذين يبنون نظريتهم على التمييز إذ إنّ " تحليل الملامح المميزة مع ارتباطها بالدراسات الآلية والأكوستيكية لانتقال الكلام، قد أنجزت خطوات متقدمة مثيرة في مجال الصوتيات والفونولوجيا. وقد ارتبط هذا التطور **بجاكوبسن** بشكل خاص وهو عضو من الأعضاء الأصليين لحلقة براغ." [37]

الحركات القصيرة والحركات الطويلة : في اللغة العربية ثلاث حركات قصيرة هي: الكسرة والضمة والفتحة تقابلها في الألفباء العربية نظائرها الطويلة الثلاث وهي: ياء المد ، و واو المد ، وألف المد . [38]

ومن مزايا هذه الحركات في اللسان العربي– طويلة كانت أم قصيرة – أنّ تنوعها (بين ياء وواو وألف) في باب الاشتقاق لا يغيّر المعنى الأصلي للمادة اللغوية تغييرا كلّياً يحولها إلى مادة أخرى مستقلة بمعناها. وإنّما يؤدّي إلى تنويعه مع بقائه محافظا على أصله الاشتقاقي . وهذا ما لا نجده في الألسن الأخرى . ولنضرب مثالا على ذلك قولنا : **عماد ، عميد ، يعمد ، عمادة ، عمدة ، اعتمد ، اعتماد ، عمود** ، وغيرها ، فكلها - أسماءً وأفعالاً - مرتبطة بالأصل من حيث المادة (**عمد**) وكذا من حيث المعنى (أي : ما عليه الاعتماد) إلاّ أنّ هذا المعنى متفرع إلى معان فرعية ناتجة عن تنوع حروف المد، ولكن دون تنقلها بين موضع وآخر من الكلمة .. وحتى في حال تنقلها داخل الكلمة من موضع إلى آخر فإنّ أصل الكلمة يبقى هو المحور الذي لا تنفكّ عنه مادةً ومعنًى ، مع تفرعها إلى معان متنوعة كما ذكرْنا آنفاً ، ومثال ذلك قولنا : **كتابة ، كاتبة ، مكتوب. وقولنا : سالم ، سليم ..** وغيرها . لكن هذا مرتبط بالاشتقاق الذي ينطوي على كثير من الأسرار لا يتسع المقام للكلام عنها ههنا .

وإذا نظرْنا إلى الحركات القصيرة وجدناها كالطويلة إذا تغيّرتْ أو تحولت عن موضعها من الكلمة أدّى ذلك إلى تغيير بل تنويع في معنى الكلمة ، مع بقائها محافظة على أصلها كما وضحنا آنفاً ومثال ما ذكرْنا، ، قولنا : **شُكور (بضمّ الشين) و : شَكور (بفتحها) ؛ وقولنا : قَبِلَ و قِبَلَ وقُبِلَ** .. وغير هذا كثير.أمّا إذا جاءت هذه الحركات في أواخر الكلمات فإنها تكون عندئذ ذات وظيفة نحوية إعرابية إذْ يكون لها دور بارز في تحديد معاني الكلمات الأخرى– وإنْ كُنّا لا نعتبر الإعراب مقتصراً على الأواخر، كما يعتقد البعض، أي أنّ مفهوم الإعراب يعني الإبانة عن المعاني والإفصاح عن القصْد، وهو مفهوم مستمدّ من معناه اللغويّ – هكذا إذاً تحظى أصوات اللين في العربية بأهميّة كبيرة لما لها من دور في تمييز معاني الكلمات وتوجيه دلالاتها.

وإذا جئنا إلى اللسان الفرنسي مثلاً لم نجد مثيلاً هذا ، إذْ إنّ الكلمة – إذا تغيرت فيها الصوائت أو انتقلت من موضع إلى آخر فيها - لا تبقى محافظة على شيء من أصلها الاشتقاقي لا من حيث المادة ولا من حيث المعنى . فإمّا أنْ يتغيّر المعنى تماماً بحيث لا يمتّ إلى المعنى الأول بصلة كما في قولهم مثلاً : Adapter بمعنى : **كيَّف** َ. فإنْ همْ قالوا : Adopter بتغيير أحد الصوائت صار المعنى : **تبنَّى.** وشتان بين : كيّفَ وتبنَّى .بل إنّ حتى هذا النوع من التغيير الذي يبقى فيه – على الأقلّ – للكلمة معنى ليس كثيراً ، ذلك أنّ الأكثر منه هو أنّ الكلمة لا تبقى تحمل أيّ معنى إنْ تغيّر فيها أحد الصوائت.. كما في قولهم مثلاً : Animer بمعنى : **نشّطَ** . فإنْ هم قالوا : Anomer لم يعدْ لها معنى .. وللحفاظ على الكلمة داخل أسرتها الاشتقاقية مع تنويع معانيها – في الفرنسية والانجليزية مثلاً - يتعيّن إضافة سوابق (Suffixes) لهذه لكلمة ، أو لواحق (Prefixes). وحتّى هذه السوابق واللواحق ليست ثابتة على نسق واحد في جميع المواد اللغويةّ .. أمّا العربية فتبقى كلماتها ثابتة محافظة على ارتباطها بالمادة الأصلية ومتصلة بالمعنى الأصلي على الرغم من تفرع دلالاتها . ثمّ إنّ العربية تقبل التحويل كذلك عن طريق السوابق واللواحق التي نجدها في اللغات الأخرى .. وهذا ما يجعل العربية تتميّز بثباتها وسعتها في آنٍ واحد .. وبذلك لا ينطبق على اللسان العربي ادّعاء الباحثين الغربيين في اللغة بأنّ التغيير والتحوُّل أمْر لا بدّ منه في أصوات كلّ اللغات عبْر الزمن .

وفيما يتعلق بطبيعة أصوات اللين يرى بعض المحدثين أنّ القدماء قد ظنواّ أن حروف المد هذه تابعة للحركات التي قبلها لكنهم " ضلّوا الطريق السويّ حين ظنّوا أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد ، والحقيقة أن هذه الحركات القصيرة لا وجود لها في تلك المواضع ، فالحروف - التي فوقها الحركات - محرّكة بحروف المد . فالتّاء في (**كتاب**) محركة بألف المد ؛ والرّاء في (**كريم**) محرّكة بياء المد . والقاف في (**يقول**) محركة بواو المد " [39] والحقيقة أن القدماء لم يغفلوا عن هذه المسألة ، ولعلّ ما قاله ابن جني من أن الحركات أبعاضٌ لحروف المدّ واللين دليل على ما نقول . غير أنّ شدة اهتمامهم بالنحو والإعراب في العصور المتأخرة كان مما شغلهم عن البحث في الأصوات اللغوية . لكن ذلك لم يمنع من وجود أعمال وجهود قيّمة حتى في العصور المتأخرة .

ولنأخذ في هذه المسألة مثلا ما أورده ابن القيم إذْ يشير إلى أنّ مدّ الحرف ليس ناتجا عن الحركة وإنما هو ناتج عن حرف المدّ الذي يليه تبعاً لحركة العضو الناطق . وهاهو يقول صراحة : " قولهم حرف متحرك ، وتحركت الواو ، ونحو ذلك تساهل منهم . فإنّ الحركة عبارة عن انتقال الجسم من حيّز إلى حيّز ، والحرف جزء من المصوّت . **ومحال أن تقوم الحركة بالحرف** لأنه عرض والحركة لا تقوم بالعرض ، **وإنما المتحرك في الحقيقة هو العضو من الشفتين أو اللسان أو الحنك الذي يخرج منه الحرف** . فالضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق فيحدث مع ذلك **صويت خفيّ مقارن للحرف إن امتدّ كان واوا ، وإن قصُرَ كان ضمة** وكذلك الفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف، وحدوث **الصوت الخفيّ الذي يسمّى فتحة أو نصبة ، وإن مدّت كانت ألفا، وإن قصرتْ فهي فتحة وكذلك القول في الكسرة. والسكون عبارة عن خلُوّ العضو من الحركات عند النطق بالحرف، فلا يحدث بعد الحرف صوت فينجزم عند ذلك، أي: ينقطع** فلذلك سمّي جزما اعتبارا بانجزام المصوّت وهو انقطاعه. وسكونا اعتبارا بالعضو الساكن فقولهم : فتح وضم وكسر ، هو من صفة العضو . وإذا سمّيت ذلك رفعا ونصبا وجزما فهي من صفة الصّوت لأنه يرتفع عند ضم الشفتين وينتصب عند فتحهما وينخفض عند كسرهما وينجزم عند سكونهما." [40]

وهذا قول جدير بالتأمل والنظر، فابن القيم يعطي الاعتبار للصوت الناتج عن وضع العضو الذي يصدر عنه هذا الصوت لا للحركة في ذاتها . وهو يصرّح بأنّ مدّ الحرف ليس تبعا للحركة التي قبله لأن الحرف عرض فهو يتبع وضع العضو الناطق به (وهذا العضو هو : الشفتان أو اللسان أو الحنك) . فالمدّ إذًا ليس ناتجا عن الحركات وإنّما هو ناتج عن صوت

طويل صادر عن أحد الأعضاء المذكورة . وهذا الصوت هو إمّا ألف أو واو أو ياء . فإذا قصر الحرف كان (**صويتا**) كما سمّاه ابن القيم (وهو ما نسميه الحركات القصيرة في مقابل الحركات الطويلة) ومصطلح (**الصويت**) الذي استعمله ابن القيم وارد كما هو في البحوث والدراسات الصوتية الحديثة ، فقد استعمله أحد الباحثين تحت اسم (صويتيات الحركات of Allophones vowels) قائلا : " إن بيئة الصويتيات تختلف اختلافا كبيرا للحركات الطويلة والقصيرة ، ويصْدق هذا **خاصة في الضمة** [41] القصيرة والضمة الطويلة .." [42] ثم يسهب المؤلف في الكلام على الصويتيات مع كل حركة ، مبيّنا خصائصها الأكوستيكية والفيزيولوجية . .

لقد رأينا ما لابن القيم – وهو أحد علماء العربية القدماء - من اطّلاع في مجال دراسة الأصوات اللغوية إنْ من الناحية النطقية أو من الناحية الوظيفية، وما كان له من بُعْد النظر وصواب الفكر وإدراك ما كان على غيره استتر.. بل إنّه استعمل بعض المصطلحات الحديثة في عصر قديم لم تتيسّر فيه أسباب البحث ولا سيما في مجال دراسة الأصوات اللغوية ، وذلك لعدة أسباب وعوامل عرفها ذلك العصر...

نستطيع أن نستخلص في الأخير أنّ علماء العربية عندما درسوا الأصوات كانوا يراعون مختلف صورها صفاتها وتغيّراتها وتنوعاتها ويرونها بما تؤديه من الوظائف والمعاني ... أي أنّ دراستهم لها كانت دراسة فونيتيكية فونولوجية في آنٍ واحد . كما أنهم كانوا كثيرا ما يعمدون إلى حسّهم ومهارتهم في فهم دلالات الحروف واستنباط معانيها واكتشاف أسرارها من خلال تجاورها أو تشابهها أو تباينها من حيث المخارج أو الصفات أو غيرها ممّا يميّزها بعضها عن البعض ..

فممّا تميّز به علماء العربية قوّة الحسّ والبراعة في اكتشاف الأسرار واللطائف الكامنة في هذا اللسان العربيّ العجيب ، وفي تعليلهم لمختلف الظواهر في لغة الضاد .. وهذا دليل على سعة العربية وثرائها وقدرتها على استيعاب كلّ ما يجدّ من البحوث والدراسات العلمية ، وأنه لا ينبغي في كلّ الأحوال إخضاعها لما هو ليس من طبيعتها ، أو ليّ عنقها والنزول بها عمّا يليق بها ، وتطويعها لما هو غريب عنها – سواء على المستوى الصوتي أو غيره من المسويات الأخرى – ممّا يُفْقِدها الكثير من خصائصها ومزاياها التي تنفرد بها . [43] فلولا أنّها لغة ثريّة متميّزة لما أوحتْ إلى هؤلاء العلماء من لغويين ونحاة وشعراء ونقّاد وفقهاء ومفسرين بما تفجّرت به قرائحهم من ألوان الفنّ وصنوف الإبداع ، ولا سيما ما يتصل بدراسة القرآن الحكيم والبحث في أسراره ، فهي معجزة به ، وليس ثمّة من لغة غيرها تستطيع تفسيره أو بيان وجوه إعجازه . وهذه حقيقة علمية ثابتة لا مراء فيها .. وعلى هذا ، فمن الخطأ الفاضح والخطب الفادح الحُكْم على العربية بأنها قاصرة عن مواكبة الدراسات الحديثة بدعوى عدم طواعيتها لها في بعض الجوانب ، إذْ لكل لسان خصوصياته التي تميّزه من غيره من الألسنة . واللسان العربي له من الخصوصيات والمزايا ما يتفرّد به إنْ في المجال الصوتي أو في غيره من المجالات الأخرى ، وهو ما يدركه العارفون ويقرّه المنصفون .

هوامش البحث:

[1]- د . عاطف مدكور : علم اللغة بين القديم والحديث. دار الثقافة للنشر والتوزيع -مصر- (1986 م) .83 - 84

[2]- المرجع نفسه: 84

[3] *-F. de saussure: Cours de linguistique générale*
Essai : Durrage présenté par: DaliLa Morsely (Enag Edition) p. 59-60.

[4]- د.كمال محمد بشر (ينظر: علم اللغة العام - الأصوات- دار المعارف- مصر (1980م) 41-42)

[5]- د. عبد الرحمان الحاج صالح : مدخل إلى علم اللسان الحديث : الباب الثاني في المذاهب والنظريات اللسانية الحديثة / مقال منشور بمجلة اللسانيات الصادرة عن مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية – الجزائر/ العدد : 7 لسنة 1997: . ص 14

[6]- ينظر: المرجع نفسه : 14- 15

[7]- رو بنز: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)ترجمة د.أحمد عوض :عالم المعرفة إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت / نوفمبر (1997م). ص 328

[8] *-Jean-Louis Duchet : La Phonologie : S.que sais- je?*
presse Universitaire de Françe (4 ¨Edition:1981) Editer enAlgerie Par DAR EL AFAQ (ganv.1995) p.5

[9] *-André Martinet : Elements de Linguistique générale.*
Librairie Amand ,collin-paris (1970) (Nouvelle edition remanieé et mise a jour (1980) p.61

[10]- د. مصطفى حركات : الصوتيات والفونولوجيا : دار الآفاق - الجزائر - (د.ت) ص 10-11

[11]- يقول الدكتور الحاج صالح بأن الاختلاف في القراءات ليس أصله الكتابة كما يرى المستشرقون، بل لأن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف.

[12]- ينظر: غرائب اللغة العربية : للأب رفائيل نخلة اليسوعي ، طبعة دار المشرق – بيروت - لبنان : 1986 ص 126

[13]- د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللة . 285 وما بعدها .

[14]- المرجع نفسه . 285 .

[15]- الأصوات عند سيبويه ثلاثة أقسام : أولها الأصوات الأصول وعددها تسعة وعشرون صوتا ؛ والأصوات الفروع المستحسنة وعددها ستة هي : ألف التفخيم عند الحجازيين والألف الممالة بشدة ، والنون الخفية(ويسمونها : الخفيفة) ، والصاد المجهورة المفخمة التي كالزاي (كقول المصريين : زريف بدل ظريف بالتفخيم) ، والشين المجهورة التي كالجيم (كما في نطق السوريين) ، والهمزة المتحركة التي هي بين بين وتكون مسبوقة بحركة أو بألف ؛ والأصوات الفروع غير المتحسنة وهي غير محدودة العدد ومنها مثلا الميل بالظاء في النطق نحو الثاء ، أو بالجيم نحو الشين ، أو بالجيم نحو الكاف ، أو نطق الثاء كأنها ضاد ...وغيرها.

[16]- المرجع السابق : 286 .

[17]- تروباتسكوي : المبادىء 12 و 43 (عن مجلة اللسانيات: ضمن مقال للدكتور عبد الرحمان الحاج صالح- العدد : 7 . لسنة : 1997) ص10

[18]- أسباب حدوث الحروف . 60 ، طبعة دمشق . (عن مجلة اللسانيات- العدد : 7 ص11)

[19]- الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي .ط/ دار الكتاب العربي . 1/ 36

[20]- ينظر: الهجات العربية : نشأة وتطورا . للدكتور عبد الغفار حامد هلال. ط/ دار الفكر العربي (1998) 412 - 413

[21]- أمّا المصطلح العربي القديم فهو : أوجه ، ج : وجه. ومصطلح الأوجه أو الوجوه قد استعمله علماء العربية كثيرا - حتى عصور متأخرة - في بحوثهم اللغوية عند الكلام عن تعدد الصيغ والأداءات واختلافها .. وهو مصطلح دقيق .

[22]- هناك نوعان من التصحيف : تصحيف نظر وتصحيف سمع : فأما الأول فيقع في الحروف المتشابهة في الرسم المتباعدة في المخرج غالبا : كالتاء والثاء ، والدال والذال ، والجيم والحاء والخاء ... وأما الثاني فيقع في الحروف المتشابهة في المخرج المتباعدة في الرسم : كالسين والصاد ، والتاء والطاء ، والقاف والكاف ، والجيم والشين.

[23]- دراسات في فقه اللغة. ص 227 – 228

[24]- ينظر: الأمالي لأبي علي القالي . 68/2

[25]- ميّز علماء العربية قديماً بين الإطباق والتفخيم ، فالأول عندهم وظيفي والثاني غير وظيفي. والإطباق يقابله الانفتاح ، أمّا التفخيم فيقابله الترقيق . وقد استعملناهما هنا بمعنى واحد تقريبا للفهم .. لأنهما متعلقان بالتمييز وتغيّر المعنى .

[26]- ينظر: الأمالي لأبي علي القالي: 156/2 في باب ما يكون بالتاء والطاء ، وذكر في هذا الشأن كثيرا من هذه الحالات الإبدالية في اللغة ،منها ما يتقارب مخرجا أو صفة ومنها ما يتباعد ، ومن هذه الحالات مثلا: ما يكون بالصاد والطاء، وما يكون بالهاء والخاء ، وما يكون بالدال والطاء ، وما يكون بالدال واللام.(ينظر: الأمالي: 2 / 155– 156) وقد أورد لذلك شواهد من الشعر ، وهذا مما يدل على أنّ هذه الظاهرة ليست شاذة أو نادرة في العربية ، وإنما هي ظاهرة لغوية متأصلة في اللسان العربي ، وهي مما يميّزه ..

[27]- كتاب سيبويه : 4 / 436.

[28]- ينظر: الصوتيات والفونولوجيا : 34

[29]- المرجع نفسه : 35

[30]- المرجع نفسه : 26 - 27

[31]- محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / لبنان .ط/7 (1401هـ / 1981 م) . 176 – 177 .

[32]- ابن القيم : بدائع الفوائد : 149/1

[33]- المصدر نفسه: 2 / 255-256 ؛ ومدارج السالكين : 3 /11

[34]- المصدر نفسه: 2 / 256

[35]- المصدر نفسه: 3 / 134

[36]- يستعمل ابن القيم أحيانا مصطلح : الصوت ، وأحيانا مصطلح : الحرف . ومراده واحد .

[37]- روبنز:موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)ترجمة د.أحمد عوض- عالم المعرفة (إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) الكويت / نوفمبر (1997م)ص 328.

[38]- التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية). 38

[39]- الأصوات اللغوية : 39

[40]- بدائع الفوائد : 30/1

[41]- والعجيب أن ابن القيم لم يستعمل مصطلح **(الصويت)** إلاّ عند كلامه عن الواو ، أمّا في كلامه عن الألف والياء فقد استعمل مصطلح **(الصوت)!** وقد أشار كما بيّنّا سابقا إلى قوة الضمة بين بية الحركات . وللقارىء الكريم أن يلاحظ مدى حداثة هذه النظرة في ذلك الزمان القديم .

[42]- التشكيل الصوتي في اللغة العربية: 39 وما بعدها .

[43]- ولكن هذا لا يعني نفي الصلة بين العربية والدراسات الحديثة . فذلك أمر محقق . إلاّ أنه ينبغي مراعاة ما للسان العربي من خصوصيات ومميزات ، وقد أثبت ذلك بعض العلماء والباحثين عرباً وغربيين..